آثار سيادة المسلمين البحرية على أوروبا

٣

سيطر المسلمون إذن على مياه البحر الأبيض من أواخر القرن السابع الميلادى إلى أواخر القرن العاشر على وجه التقريب ، فماذا كانت نتائج ذلك فى العالم الإسلامى أولا ثم فى العالم الغربى ؟

فأما عن الناحية الأولى فقد أشرنا إلى ما كان من تحول الدولة الإسلامية إلى دولة بحرية متوسطية خلال العصر الأموى ، وإلى مظاهر هذا التأثر فيما يتصل بروح الدولة واتجاهها العام خلال هذا العصر ، وأشرت إلى ما كان من توقف هذا التأثير البحرى بعد انتقال مركز الدولة إلى العراق ، وتحولها إلى دولة آسيوية قارية لا تتأثر بالبحر الأبيض إلا بمقدار قليل جداً ، وبينت ما كان لدخول أمم الشام ومصر والمغرب وشبه جزيرة إيبريا من تحول حاسم فى اتجاه تاريخها وثقافتها .

أ ــ إقفال موانى غربى أوروبا :

وأما عن الناحية الثانية ، أى آثار دخول المسلمين حوض البحر الأبيض على الجبهة الأوروبية ، فقد لاحظنا كيف أن البحر الأبيض لم يعد فى فترة سيادة المسلمين عليه بحيرة داخلة فى نطاق العالم الرومانى الأوروبى ، بل صار ــ من أوائل القرن الثامن الميلادى إلى منتصف الحادى عشر ــ حداً لهذا العالم ؛ أصبحت الحدود الجنوبية لأوروبا هى سواحلها الجنوبية ، وارتفعت حدود الشرق حتى أصبحت عند جبال البرتات (البرانس) ، ولم

تعد جزائر البحر الأبيض الكبرى والصغرى داخلة فى نطاق أوروبا بل فى نطاق آسيا وإفريقية ، بل دخلت فى هذا النطاق الأخير أجزاء كبيرة من كلابريا وأبوليا فى جنوبى إيطاليا ، وأصبحت السواحل الجنوبية للبلقان والسواحل الشرقية لإيطاليا والسواحل الجنوبية لغالة مناطق مهددة بغارات المسلمين ، وتراجع السكان منها إلى الداخل ، أى أن الثغور الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض تعطلت طوال هذه الفترة ولم تعد المتاجر تصل إليها ، فأما الحوض الشرقى لهذا البحر فلم تعد تصل إلى الموانى البيزنطية إلا السفن المقبلة من شواطىء أوروبية أخرى ، من ناحية البندقية وإجزركية رافنا على الخصوص ، وأما الموانى الأوروبية فى الحوض الغربى فقد تعطلت تماماً ، وحرمت أوروبا من واردات الشرق كلها خلال ثلاثة قرون على الأقل . وكان لهذا نتائجه البعيدة على الدولة البيزنطية أولا ، وعلى غربى أوروبا ثانياً .

ب ــ شواطىء الدولة البيزنطية :

حُرِمَت الدولة البيزنطية من الجزء الأكبر من سواحلها ومرافئها الآسيوية والإفريقية ، واضطرت أساطيلها إلى التراجع إلى مياه بحر إيجه ، وحرمت كذلك من السوريين الذين كانوا يقومون بأكبر نصيب من نشاطها التجارى البحرى ، وبينما كانت أساطيلها قبل الإسلام تقطع الحوض الشرقى للبحر الأبيض وتتنقل فيما بين قرطاجنة والإسكندرية والبرلس وأنطاكية وصيدا وصور والقسطنطينية وسالونيك فى حرية تامة ، أصبح همها المرابطة فى مياه بحر أيجه للحيلولة بين المسلمين وبين اقتحامه ، بل جاء وقت اقتصر همها فيه على حراسة الدردنيل لمنع سفن المسلمين من ولوج بحر مرمرة وتهديد القسطنطينية . وامتنع ورود المحاصيل والمتاجر الشرقية إلى الموانى البيزنطية ، فاضمحلت بحريتها التجارية اضمحلالا يكاد يكون تاماً ابتداء من القرن الثامن الميلادى .

واضطرت الدولة إزاء الخطر الإسلامى إلى تعميم نظام البنود Themata وإدخاله فى ولاياتها البحرية المواجهة للمسلمين[١] . ففى القرن الثامن تحولت ولاية أبيدوس إلى «بند بحرى» عرف بالبند الإيجى ، يحكمه أمير بحر تحت إمرته أسطول يقوم بحماية بحر إيجه ومداخل الدردنيل من سفن المسلمين ، وظهر كذلك بند الكبيريين Kibyrhaetoi وحمل حاكم كل من البندين لقب أمير البحر Drungarius ، وكان حاكم البند الأول موكلا بحماية شواطىء آسيا الصغرى ومداخل بحر إيجه من المسلمين[٢] ، وكان أميرا هذين البندين يقيمان فى القسطنطينية ويتبعان الإمبراطور مباشرة ، وكان تحت تصرف كل منهما أسطول كبير أهم قطعه سفن صغيرة تسمى القرابيز Carabos وهى قريبة الشبه بالشوانى المملوكية[٣] ، وبفضل هذه القرابيز السريعة استطاع البيزنطيون منع المسلمين من دخول بحر إيجه ، بل هددوا سواحلهم وموانيهم .

وخلال القرن التاسع أنشىء بند بحرى جديد مركزه جزيرة ساموس ، مهمته مراقبة حركات المسلمين المسيطرين على كريت وحماية مداخل البحر الأدرياتى وجنوب إيطاليا من غاراتهم[٤] ، وقد وصف لنا نظام هذه البنود البحرية البيزنطية الإمبراطور قسطنطين السابع فى كتابه المسمى «عن البنود De Tematibus » ، وأكمل هذا الوصف أبو الحسن المسعودى فى كتاب «التنبيه والإشراف» بمعلومات نسبها إلى رجل يسمى مسلم بن أبى مسلم الجرمى كان البيزنطيون قد أسروه وأطلقوا سراحه فى فداء سنة ٨٤٥م .

---

(١) راجع عن نشأة نظام البنود Themata فى الدولة البيزنطية فى : A.A Vasiliev: Histoire de l'Empire Byzantin (Paris, 1932) vol. I, pp. 331. sqq

والمراجع المعطاة هناك . Gelzer: Die Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, S. 82. sqq

(٢) وانظر : Runciman: Byzantine Civilisation (London, 1948) p. 150.

(٣) إبراهيم أحمد العدوى : دراسات فى التاريخ البيزنطى ، المجلة التاريخية المصرية ، ج ٢ ، عدد ٢ (أكتوبر ١٩٤٩) ص ٨١ .

(٤) Runciman, op. cit. p. 150

وقال عنه إنه «كان ذا محل فى الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكها وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها، وأوقات الغزو إليها والغارة عليها من لرجان والأبر والبرغز والصقالبة والخزر وغيرهم»[٣] ، وقد أورد المسعودى عن الجرمى أسماء أربعة عشر بنداً برياً وبحرياً أنشأها البيزنطيون لمواجهة خطر الغارات الإسلامية فى البر والبحر . وإذا جمعنا معلوماته إلى معلومات قسطنطين السابع فى «كتاب البنود» تبينا أن الدولة البيزنطية قد تحولت كلها إلى ولايات عسكرية يحكمها قادة أو أمراء بحار لمواجهة الخطر الإسلامى وأخطار القرصان فى البحر الأدرياتى .

وقد أهمل أباطرة الأسرة الإيزورية أمر أسطولهم بعد زوال الخطر الإسلامى على أوائل العصر العباسى ؛ لأن البحارة كانوا يعارضون سياسة الأباطرة اللاصورية ، وأهملوا تبعاً لذلك بنودهم البحرية ؛ وقد علق الأستاذ رونسيمان على ذلك بقوله : كانت تلك سياسة خاطئة . ففى القرن التاسع الميلادى عادت الأساطيل العربية إلى الظهور فى البحر الأبيض ، واقتطعت من الإمبراطورية البيزنطية صقلية وكريت ، وتحولت هذه الأخيرة إلى قاعدة لأعمال القراصنة التى هددت شواطىء بحر إيجه كلها . ومن ثم لم يعد للإمبراطورية مندوحة عن بعث الأسطول من جديد ، ووافق ذلك نهاية حركة اللاصورية ، وكان ذلك أمراً معقولا ، واهتمت تيودورا وميخائيل الثانى وباسيل الأول بإعادة تنظيم البحرية كلها . وأعيدت البنود البحرية إلى ما كانت عليه من تنظيم سابق . وبعد قليل أضيف إليها بند بحرى جديد هو بند ساموس بما فيه أزمير ، وزودت الإمبراطورية بنودها الأوروبية ــ مثل هيلاس والبيلوبونيز وسيفالونيا ــ بمنشآت ومعدات بحرية ، وكذلك فعلت

---

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص١٦٢ .
ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨٩ ، ج ٦ ، ص٧٧ وما يليها .

فى البنود الإيطالية . وأنشئت عمارة بحرية كبيرة مركزها عند القسطنطينية يقودها «أمير بحر كبير» معتبر من كبار موظفى الدولة .

وكان حكام البنود البحرية يتقاضون مع ذلك مرتبات تقل عما كان يتقاضاه أمراء البنود الحربية ، فكان راتب الواحد منهم عشر ليرات من الذهب فى العام . وكانت البحرية البيزنطية الجديدة موفقة قادرة على القيام بمهمتها . نعم إنها لم تستطع استعادة صقلية من أيدى المسلمين ، ولكنها استردت جنوبى إيطاليا للإمبراطورية . وتمكنت العمارة البحرية البيزنطية من أن تقوم بحملات فى البحر الأدرياتى بقيادة أمير البحر أوريفاس Ooryphas ، وأعادت أهل الشواطىء الدلماشية إلى الولاء الذى كانت قد تراخت أواصره . وعلى رغم وجود هذا الأسطول تمكن القرصان المسلم ليو الطرابلسى من أن يغزو إقليم سلانيك وينهبه سنة ٩٠٤ ، ولكن الأسطول البيزنطى تعقبه وقتله بعد ذلك بسنوات »[1] .

وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن ناحية هامة من نواحى وضع المسلمين فى البحر الأبيض الشرقى ، هى نظرة مؤرخى الدولة البيزنطية ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين إلى أعمال المسلمين البحرية ابتداء من منتصف القرن التاسع الميلادى على أنها أعمال قرصنة . وربما كان ذلك صحيحاً من بعض الوجوه ؛ لأن الأساطيل الإسلامية النظامية ـــ سواء أكانت تابعة للدولة العباسية فى الشام أم للدويلات المستقلة فى مصر والمغرب ـــ قصرت جهدها على الدفاع عن الشواطىء ، أما الغارات فكانت تقوم بها فى الغالب جماعات تعمل لحسابها الخاص ، هدفها الإغارة على الشواطىء الأوروبية والفوز بالغنائم ، ومن ثم كانت أعمالا قريبة من القرصنة ؛ ومن هنا نفهم السبب فى أن المراجع العربية لاتذكر لنا شيئاً عن هذه الأعمال .

---

(١) S. Runciman: Byzantine Civilisation (London, 1932) p. 150.

والغالب أن هذه الجماعات التى كانت تقوم بهذه الأعمال كانت جماعات حرة لا سيطرة للدول الإسلامية عليها ، كانت تتخذ موانى المسلمين مراكز لأعمالهم ومنها تشن الغارة على ما استطاعت الإغارة عليه من سواحل البلاد النصرانية فى شرق البحر الأبيض وغربه وخاصة بحار إيجه وآدريا والتيرانى . وكان رجال هذه القوات المنسوبة إلى المسلمين بجارة من كل صنف وجنسية ، وكان فيهم الكثيرون من النصارى ، وهذه العمارات البحرية الصغيرة هى التى روعت أمن شرق البحر الأبيض ووسطه ، بعد أن كفت الدولة الإسلامية عن محاولة غزو الدولة البيزنطية بحراً بعد نهاية العصر الأموى . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أن الشواطىء الأوروبية للحوضين الشرق والأوسط للبحر الأبيض كانت حافلة بمراكز قراصنة النصارى الذين كانوا لا يفرقون بين بلاد إسلامية وغير إسلامية ، فكانوا يغزون شواطىء الدولة البيزنطية وشواطىء إيطاليا ويروعونها ، وقد نسب مؤرخو النصارى أعمال أولئك القرصان النصارى إلى المسلمين أيضاً مادامت موجهة ضد بلاد نصرانية[1] .

والذى نخرج به من مجموع ما تحدثنا به المراجع الأوروبية ، هو أن الحوضين الغربى والأوسط للبحر الأبيض كانا تحت رحمة القراصنة من الجانبين ، من منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر تقريباً . وهذا لا يمنع القول بأن ضربات الجماعات الإسلامية أو الخارجة من بلاد إسلامية كانت أعنف ؛ لأن شواطىء الدولة البيزنطية وممتلكاتها فى دلماشيا وإيطاليا لم تكن محروسة تماما ، أما شواطىء بلاد المسلمين فكانت الحراسة عليها أشد ، ولم تخل مع ذلك من ضربات القراصنة بين الحين والحين .

---

(١) انظر عن ذلك الموضوع ومراجعة : Neumann: Die Byzantinische Marine فى المجلة التاريخية الألمانية H.Z. مجلد ٤٥ ، ص ١ وما يليها .

حـ ــ جماعة أندلسية تستولى على كريت :

وأكبر مثال لهذه الجماعات الإسلامية التى كانت تعمل لحسابها فى مياه البحر الأبيض هو الجماعة الإسلامية التى استولت على إقريطش . وأصل هذه الجماعة من الأندلس ، خرجت من هناك سنة ١٩٨ ــ ٨١٣ ــ ٨١٤ عقب هيج ربض قرطبة على الحكم الأول المعروف بالربضى نسبة إلى ذلك الهيج ، إذ أن الحكم أراد عقاب أهل الربض على وثوبهم فنفاهم ، فذهب بعضهم إلى العدوة الإفريقية واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيًّا خاصاً يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقون فقد ساروا بحراً ونزلوا إلى جانب الإسكندرية سنة ١٩٩ ــ ٨١٤ ــ ٨١٥ يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر ابن عيسى بن شعيب بن الوليد البلوطى ؛ لأن ولاة مصر كانوا لا يسمحون للأندلسيين بدخول البلد[١] ، وكان عددهم حوالى ١٥ ألف رجل عدا النساء والأطفال كما يقول دوزى[٢] ، وحدث بعد ذلك ما مكن لهم من الاستيلاء على البلد ، ثم ثار عليهم أهل البلد وطردوهم منها[٣] . فسار أبو حفص بمن معه ونزل ساحل إقريطش ولم يزل يفتح شيئاً بعد شىء حتى لم يبق بها من الروم أحد وأخرب حصونها وتداولها بنوه بعده ، كما يقول النويرى . ثم وفد على الجزيرة بعد ذلك نفر آخر من الأندلسيين وانضموا إلى إخوانهم ، وملكوا عليهم رجلا منهم وعمروا فيها أربعين قطعة ، وغزوا جميع ما حولها من جزائر القسطنطينية ، ففتحوا أكثر الجزائر وغنموا وسبوا ، ولم يكن لملك القسطنطينية بهم من قبل» .

ويبدو أن نشاط المسلمين بلغ حداً روع أمن شواطىء الدولة ، فتذكر المراجع البيزنطية أبا حفص الإقريطشى باسم أبو كابسو Apocapso وتنسب إليه غزوات كثيرة . وكان مركز أعماله موضع بلد قديم على خليج لادا

---

(١) الكندى : القضاة والولاة ، ص١٥٧ .

(٢) Dozy: Musulmans d'Espsgne (ed. Lévi-Provencal) i. p. 300.

(٣) الكندى : نفس المرجع ، ص١٥٨ .

Lada يسمى شراخ Charax فحصنه وحفر حوله خندقاً ، وعرف كله بالخندق ونشأت فيه مدينة هى التى عرفت فيما بعد باسم كانديا Candia وهى تحريف للفظ «خندق» العربى . وبلغ من خطر أولئك المسلمين الإقريطيشيين على الدولة أن قرر الإمبراطور رومانوس الثانى الاستيلاء على الجزيرة منهم ، فمازال يحتال على ملكهم عبدالعزيز بن حبيب بن عمر حتى تم له استعادة الجزيرة فى جمادى الأولى ٣٤٩ــ ٩٦٠ ، وتذهب مراجع أخرى إلى أن الذى استعاد الجزيرة من المسلمين كان نقفور فوكاس . وتذكر المراجع البيزنطية أن عبدالعزيز بن حبيب أخذ أسيراً إلى القسطنطينية وفيها قضى بقية أيامه[١] .

وبعودة إقريطش إلى الدولة البيزنطية عادت سيادة الدولة البيزنطية على شرق البحر الأبيض ، وحق لنقفور فوكاس أن يقول لليو تويراند السفير الإيطالى : «أنا وحدى أسيطر على البحر»[٢] .

ولكن هذه السيادة البيزنطية على شرق البحر الأبيض ووسطه لم تدم طويلا ؛ لأن الأباطرة بعد نقفور فوكاس أهملوا أمر الأسطول ، إما لخوفهم من رجال البحر وقوتهم ، أو لأن شعور الدولة بعدم وجود خطر منافس فى البحر جعلهم يهملون البحرية والأسطول[٣] .

د ــ البندقية تحل محل بيزنطة :

وكانت نتيجة ذلك الإهمال أن فتر النشاط التجارى البيزنطى فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وعندما نهضت البندقية خلال القرن التاسع

---

(١) انظر عن ذلك كله : Mariano Gaspar Rimero: Cordobeses Musulmanes en Alejandria y Creta apud Homenaje a Codera (Madrid, 1904) pp. 218 Sqq.

والنصوص العربية التى ذيل بها هذا المقال .

وانظر أيضاً : سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص١٦٨ ــ ١٧٠ .

(٢) Runciman, op. cit. p. 151.

(٣) Runciman, op. cit. p. 152.

الميلادى وجدت أمامها مجالا خالياً ، فنشطت أساطيلها فى نقل المتاجر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ، وأعانها على ذلك أنها نجحت فى محالفة المسلمين مخالفة أوامر البابوات ، وأصبحت سفن البندقية واسطة النقل بين المسلمين والبيزنطيين[١] ، فعادت المتاجر الإسلامية إلى الظهور فى الأسواق البيزنطية ، وكانت سفن البندقيين تحمل إلى الثغور الإسلامية الحديد والنحاس والخشب ورقيق الصقالبة ، وتحمل منها القمح والحبوب والنسيج والتوابل والبخور وأصنافاً مختلفة من صناعات الشرق الدقيقة وتنقلها إلى الأسواق البيزنطية والأوروبية عامة[٢] . بل استطاع البندقيون حوالى سنة ٨٢٨م ــ بفضل علاقاتهم الطيبة مع المسلمين أن يحملوا من الإسكندرية رفات القديس مرقص منشىء كنيسة الإسكندرية وكاروزها وينقلوه إلى بلدهم البندقية ويجعلوه راعى بلدهم ، وعلى رفاته قامت كنيسة سان ماركو الباقية إلى اليوم بعد تجديدات وتحسينات أدخلت بعد ذلك[٣] .

وفى مقابل هذه الخدمات التى قام بها البندقيون للدولة البيزنطية لم يبخل عليهم الأباطرة بالامتيازات والإعفاءات ، فقامت لهم المحطات التجارية والجاليات فى ثغور الدولة والكثير من بلادها الداخلية[٤] ، بل منحهم ألكسيس كومنين عام ١٠٨٢ إعفاء تاماً من الضرائب والمكوس بشتى صنوفها ، فكانت النتيجة أن أصبحت التجارة البحرية فى البيزنطية احتكاراً خالصاً للبندقيين ، وعندما تبدأ الحروب الصليبية سيقوم البندقيون ــ لا البيزنطيون ــ بالجانب البحرى من الأعمال الحربية الصليبية[٥] .

---

(١) Mas-Latrie, op. cit. p. 43 Sqq.

(٢) عن نهوض البندقية وسياستها انظر : Adolf Schaube: Handelsgeschichte der romanischen Volker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzuge (Munchen u. Berlin, 1906) s.s. 3 ff.

(٣) شارل ديل : البندقية ، جمهورية أرستقراطية (ترجمة الدكتورين عزت عبدالكريم وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢١ .

(٤) Henri Pirenne, apud: Histoire du Moyen-Age, tome VIII (Paris 1933), pp. 22-23.

(٥) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٠) ، ص ٢٨٤ .

هـ ــ آثار سيادة الإسلام على غربى البحر الأبيض على غربى أوروبا :

أما فى غربى أوروبا ، فقد كان لدخول المسلمين الحوض الغربى للبحر الأبيض وسيطرتهم على مياهه وتهديدهم شواطئه نتائج بعيدة على مصائر غربى أوروبا من أوائل القرن الثامن الميلادى إلى نهاية الحادى عشر على وجه التقريب ، وقد درس هذه الناحية المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين وخرج من دراساته بنظرية مشهورة عند مؤرخى العصور الوسطى ، جمع أطرافها فى كتابه المعروف «محمد وشارلمان[1]» .

و ــ نظرية هنرى بيرين :

وخلاصة نظرية بيرين أن دخول المسلمين حوض البحر الأبيض أفقد هذا البحر طابعه الذى لازمه طول العصور القديمة : وبدلا من أن يظل واسطة الاتصال بين الشرق والغرب أصبحت مياهه حداً فاصلا بينهما . وإذا كانت الدولة البيزنطية قد وفقت فى حماية البحر الإيجى من غارات المسلمين إلى حد ما ، فإن أوروبا الغربية وقفت عاجزة أمامهم ، فلم يلبثوا أن سادوا حوضه الغربى والبحر التيرانى جملة ، وضربوا حصاراً حول السواحل الجنوبية لغرب أوروبا ، معتمدين على مراكزهم البحرية القوية التى أنشئوها على شواطىء المغرب والأندلس وفى جزائر صقلية وسردانية وقرسقة والبليار التى ملكوها . وكانت نتيجة ذلك أن امتنع ركوب البحر على أهل غالة وشرقى إيطاليا ، واستحال عليهم أن يخرجوا فيه بسفين ، كما يقول ابن خلدون فى عبارته التى رويناها قبلا . وقد ظهر ذلك بصورة واضحة جداً على عهد الكارولنجيين ، فكانت إمبراطوريتهم إمبراطورية برية صرفة ، على

---

(١) أشار إلى نتائج سيادة المسلمين على حوض البحر الأبيض كثير من المؤرخين قبل بيرين ، أهمهم أدولف شاوبه فى كتابه الآنف الذكر ، وهو يعبر عن سيادة المسلمين على هذا البحر وما فعلوه بشواطئه بلفظ ذى دلالة خاصة هو : die Sarazenennot أى الشدة أو المحنة العربية . انظر ص٣ من ذلك الكتاب . ولكن بيرين هو الذى استخرج من مجموع أحوال البحر الأبيض وأوروبا الغربية نظريته المعروفة التى سنعرضها فيما يلى من المتن .

حين كان ذلك البحر مفتوحاً على عهد الميروفنجيين ومن سبقهم من الرومان ، وكان لهذا آثاره البعيدة فى أحوال أوروبا الغربية الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الميلاديين .

ذلك أن العداء بين الجبهتين النصرانية والإسلامية بلغ ذروته خلال هذه الفترة ، وبينما نجد حركة تجارية متواضعة بين بلاد المسلمين والبندقية وبعض المواقع البيزنطية على ساحل البحر التيرانى مثل نابلى وأمالفى ، نلاحظ توقف كل لون من التبادل التجارى بين غالة وبلاد المسلمين ، بل نجد المسلمين يهاجمون سواحل أوروبا النصرانية فى عنف متصل حتى أوائل القرن الحادى عشر ، فقد نهبوا فيشة Pisa عامى ٩٣٥ و١٠٠٤ وخربوا برشلونة عام ٩٨٥ ، بل بلغ من اشتداد خطر المسلمين خلال القرن العاشر أن نقلت أسقفية مجلونة Maguelonne إلى مونبلييه[1] . بل هاجمت جماعة من المسلمين روما نفسها عام ٨٤٦ وخربوا بعض كنائسها ، وكانت نتيجة ذلك أن انسحب سكان هذه النواحى إلى داخل البلاد وتركوا السواحل والثغور تحت رحمة المسلمين ، أى أن غربى أوروبا انحصر حصراً شديداً من الجنوب . وإذا كنا نسمع عن ناس حجوا إلى بيت المقدس من غالة وإيطاليا خلال القرنين التاسع والعاشر ، فينبغى أن نذكر أنهم وصلوا إلى الأراضى المقدسة عن طريق البر لا عن طريق البحر . ونتج عن توقف الملاحة توقف التجارة ؛ لأن التجار الذين عرفهم غربى أوروبا قبل القرن التاسع كانوا يعتمدون اعتماداً تاماً على البضائع الواردة من الشرق عبر البحر الأبيض ، وعلى هذه التجارة الشرقية عاشت المدن الرومانية التى ظلت عامرة إلى أواخر العصر الميروفنجى ، أى إلى نهاية القرن الثامن الميلادى .

---

(١) عرض بيرين نظريته تلك فى أكثر من بحث قبل أن يصوغها صياغة نهائية فى كتاب «محمد وشارلمان» ، وإليك أهم دراساته فى هذا الموضوع :

— Un contraste économique: Merovingiens et Carolingiens dans Revue Belge de philologie et d'histoire. vol. I, 1922 et vol. II, 1923.

— Medieval Cities (Princeton, 1925).

— Les villes du Moyen-Age. (Bruxelles, 1927).

ز ــ إغلاق البحر الأبيض الغربى :

وكانت نتيجة ذلك النشاط البحرى الإسلامى تلك الظاهرة التى يصفها بيرين بأنها «انقفال البحر الأبيض الغربى»

La Fermeture de la Mediterranée Occidentale

وإليك ما يقوله بنصه فى هذا الصدد :

«طالما ظل البحر الأبيض مسيحياً كانت الملاحة الشرقية هى التى تقوم بعبء التجارة مع الغرب . وكانت مصر والشام مركزيها الرئيسيين ، وكانت هاتان الولايتان الغنيتان أول ما وقع تحت سلطان المسلمين . وإنه لمن الخطأ الجسيم أن نعتقد أن سيادة الإسلام على هذين البلدين قد قضت على كل نشاط اقتصادى لهما . وإذا كانت قد وقعت فى هذه البلاد بعد دخولها فى حوزة الإسلام اضطرابات شديدة[١] ، أو إذا كنا نشهد هجرة واسعة من السوريين نحو الغرب[٢] ، فلا ينبغى أن نحسب أن ذلك دليل على انهيار البناء الاقتصادى هناك . فقد أصبحت دمشق أولى عواصم الخلافة الإسلامية[٣] ولم تتوقف تجارة التوابل أو صناعة البردى ، ولم يتوقف النشاط فى الموانى . ومادام النصارى يؤدون الجزية للدولة الإسلامية فقد كانوا آمنين لا يمسهم ضر ، وعلى هذا فقد استمرت التجارة ، ولكن اتجاهها هو الذى تغير »[٤] .

---

(١) يشير إلى الفتنة التى وقعت بعد مقتل عثمان .

(٢) لا تحدثنا مراجعنا الإسلامية بشىء عن هذه الهجرة ، ولكن بيرين أورد فى موضع آخر من كتابه أدلة استقاها من المراجع الأوروبية .

(٣) الصحيح أنها الثانية بعد المدينة ، أو الثالثة إذا اعتبرنا الكوفة عاصمة لعلى بن أبى طالب أثناء خلافته .

(٤) بمناسبة إغلاق الإسلام للبحر الأبيض الغربى (بخلاف حوضه الشرقى) انظر ما يذكره العربى النصرانى يحيى ابن سعيد الأنطاكى من أنه لم يجد بين يديه بعد البابا أجاثون (٦٧٨ ــ ٦٨١) بياناً يستطيع الاعتماد عليه فى ترتيب بطارقة روما . انظر : Bedier: Charlemage et la Palestine. Revue Historique, t. CLVII, 1928.

« ومن الطبيعى أن الفاتح (المسلم) يمنع رعاياه من المتاجرة مع بلاد النصارى[1] فى طول فترة الفتوح . وعندما هدأت الحرب واستقر السلام ونشطت الأنفس من عقالها فى الولايات المفتوحة ، عمد الإسلام إلى توجيه التجارة فى الوجهات الجديدة التى فتحتها أمامه فتوحه . لقد انفتحت طرق تجارية جديدة ربطت بحر قزوين بالبحر البلطى عن طريق نهر الفولجا . وكان على تجار اسكندريناوة الذين كانوا يترددون على نواحى البحر الأسود أن يسرعوا باتخاذ الطريق الجديد ، ويكفى دليلا على ذلك ما عثرنا عليه من قطع العملة الشرقية فى جوتلاند » .

«ومن المؤكد أن الاضطراب الذى كان لا بد أن يلازم حركة الفتح الإسلامى للشام (٦٣٤ ــ ٦٣٦) ولمصر (٦٤٠ ــ ٦٤٢) قد أوقف الملاحة مؤقتاً ، فقد كان لا بد من أخذ سفن التجارة وضمها إلى الأسطول الذى أسرع المسلمون لإعداده لاستعماله فى بحر إيجه . ولا يمكن أن نتصور أن التجار كانوا يشقون البحار بسفنهم بين الأساطيل المعادية ، اللهم إلا ما عمد إليه بعضهم انتهازاً للفرصة السانحة من اتخاذ طريق القرصنة » .

ولا بد أن نقرر أنه ابتداء من منتصف القرن السابع أصبحت الملاحة ــ من موانى البلاد الإسلامية وموانى بحر إيجه مع البلاد التى ظلت نصرانية ــ مستحيلة . وإذا كان قد بقى من هذه التجارة شىء ، فهو نزر يسير لا يستحق الذكر » .

«أما عن الموانى البيزنطية وما كانت تحميه من السواحل المحيطة بها ، فقد ظلت الملاحة قائمة فى حماية الأسطول البيزنطى ، واستمر الاتصال مع الأقاليم الإغريقية من بلاد اليونان والبحر الأدرى (الأدرياتى) وإيطاليا الجنوبية

---

(١) عدلت عبارة المؤلف هنا بعض التعديل ، وهاك الأصل : Il va de soi qu'en pleine guere, le vainqueur ne laissa pas ses sujets trafiquer avec les vaineus

وصقلية . ولكننا لا نستطيع القول إنها كانت تستطيع الاستطراد إلى ما يلى ذلك ؛ لأن المسلمين بدءوا يهاجمون صقلية ابتداء من ٦٥٠ م » .

«أما عن النشاط التجارى الإفريقى ، فلا نزاع فى أن القلقلة المستمرة التى شملتها من ٦٤٣ إلى ٧٠٨ قد أوقفته تماماً . وإذا كانت قد بقيت منه بقية فقد اختفت بعد سقوط قرطاجنة وإنشاء تونس ٦٩٨ » .

« ثم بدأ فتح الأندلس عام ٧١١ ، وعدمت شواطىء بروفانس الأمان بعد ذلك مباشرة ، وكانت النتيجة أن أصبح كل لون من الملاحة البحرية مستحيلا فى البحر الأبيض الغربى ولم يعد فى استطاعة بقية الموانى النصرانية أن تحتفظ باتصال ملاحى فيما بينها ، أى لم تكن لديها أساطيل ، أو بقى لها منها شىء وجوده كعدمه .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن الملاحة توقفت من حوالى ٦٥٠ مع كل البلاد الشرقية الواقعة شرقى صقلية ، وأنه خلال النصف الثانى من القرن السابع توقفت الملاحة تماماً فى شواطىء الغرب[1] جميعا » .

«ويبدو توقف هذه الملاحة تماماً بصورة لا تقبل الشك فى أوائل القرن الثامن . لم تعد هناك ملاحة فى البحر الأبيض إلا على السواحل البيزنطية . وقد صدق ابن خلدون فى قالته : «كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج» (مع استثناء بيزنطية) . لقد أصبح حوض البحر الأبيض

---

(١) يقصد الشواطىء الغربية للبحر الأبيض .

تحت رحمة قراصنة المسلمين[1] . وخلال القرن التاسع نجدهم يستولون على الجزائر ويخربون الموانى ويقومون بغارات (razzias) على كل موضع من مواضعه . وخيم سكون شامل على ميناء مرسيليا الكبير الذى كان فيما مضى المركز الرئيسى لتجارة الغرب مع الشرق . لقد انكسرت الوحدة الاقتصادية للبحر الأبيض ، وستظل كذلك حتى الحروب الصليبية . ولقد ظلت هذه الوحدة قائمة رغم غزوات الجرمان ، ولكنها انهارت أمام الدفاع الإسلامى الذى لا يقاوم» .

هذه هى الظاهرة التاريخية الكبرى التى يرى المؤرخ الكبير أنها نتجت عن سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض وتحوله إلى بحيرة إسلامية . وهو يعلق عليها نتائج أبعد مدى مما ذكرنا ، نتائج تتصل بالتطور العام لتاريخ أوروبا الغربية فيما بين منتصف القرن السابع إلى منتصف الحادى عشر الميلاديين . وأهم هذه النتائج هى سرعة تحول العالم الأوروبى الغربى إلى عالم زراعى قارى لا صلة له بالبحر ، وقد جر ذلك بدوره إلى نتائج أخرى . ونحن نوجز ذلك كله فيما يلى :

ح ــ تحول مجتمع غربى أوروبا إلى مجتمع زراعى :

ذلك أن توقف هذه التجارة البحرية أدى إلى اختفاء التجار فى غربى أوروبا . ولما كان هؤلاء التجار هم الذين يعمرون المدن الرومانية القديمة ، فقد أسرعت هذه المدن إلى الاضمحلال والزوال . نعم إن الأساقفة ظلوا يقيمون فيها مع من لزم الكنائس وشئون الدين من القسس والرهبان والديّارين والطلاب وخدم الكنائس ومن إليهم ، ولكن هذه المدن فقدت أهميتها الاقتصادية ، وإذا فقد البلد أهميته الاقتصادية وخلا من التجار اضمحل وأسرع إليه الزوال . وباختفاء التجارة والتجار اختفى «الصولدى»

---

(١) ناقشت مسألة قراصنة المسلمين هذه فيما سبق .

الرومانى الذهبى الذى كان أساس التعامل التجارى فى حوض البحر الأبيض كله ، واضطر الكارولنجيون إلى سك عملة فضية ، وظهور هذه العملة الأخيرة دليل ناصع على ما أصاب التجارة فى غربى أوروبا من كساد كامل خلال القرن التاسع الميلادى .

ولما كان ابتداء القرن التاسع يوافق الانتقال من العصر الميروفنجى إلى العصر الكارولنجى فى تاريخ غالة وأوروبا الغربية عامة ، فإن بيرين يعتبر العصر الكارولنجى عصر تأخر اقتصادى حضارى لغربى أوروبا ، ويصف حضارته خلاله بأنها حضارة قارية زراعية ويقول : «وإنه لمن الخطأ البين أن نعتبر حكم شارلمان عصر صعود اقتصادى كما يظن الكثيرون . إن هذا القول ليس إلا وهماً خادعاً ؛ إذ الواقع أننا إذا قارنا الفترة الكارولنجية بالفترة الميروفنجية وجدناها ـــ من الناحية التجارية ـــ فترة تدهور ، أو إذا شئنا فترة تراجع[1] . ولو أن شارلمان حاول أن يوقف النتائج التى لا مفر منها التى نتجت عن اختفاء النشاط الملاحى وانتقال البحر الأبيض لما استطاع»[2] .

وإذا كنا نلاحظ أن شيئاً من النشاط التجارى قد ظل قائماً فى النواحى الشمالية للإمبراطورية الكارولنجية ، وأن بعض المدن التجارية على الأحواض الدنيا لأنهار الرين والميز والموزيل والإسكو وفى إقليم فريزيا قد استمرت التجارة فيها قائمة ، فلا ينبغى أن نظن أن ذلك كان استمراراً للنشاط التجارى القديم الذى عرفته أوروبا على عهد الرومان والميروفنجيين ، بل هو فى الغالب نتيجة لاتخاذ شارلمان لبلدة «إيكس

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى كتاب : L. Halphen: Etude esitique sur l'histoire de Charlemagne. p, 259 et suiv (Paris, 1921).

وإلى : H. Pienne: Le commerce du papyrus dans la Gaule Mérovingienne dans Comptes rendus des séances de l'acad. des Inscriptions des Belles Lettres, 1928, p. 178 et suiv.

(٢) H. Pirenne: La civilisation occidentale du Moyen-Age, p. II.

لاشابل» عاصمة له وسط هذا الإقليم ، مما أدى إلى نشاط القليل ، وبهذا أغلقت بحار أوروبا الشمالية كما أغلقت بحارها الجنوبية ، ووقع غربى أوروبا بين حصارين شديدين : من الشمال على أيدى النورمانيين ، ومن الجنوب على أيدى المسلمين .

واكتمل هذا الحصار عندما نشطت غارات الآفار والمجر على غربى أوروبا من الشرق ، وقد كانت غاراتهم مخربة قاسية لا تقل عنفاً عن غارات النورمانيين والمسلمين .

وكانت نتيجة هذا الحصار الشديد ، وما تبعه من اختفاء التجارة والتجار واضمحلال المدن ، أن تحول المجتمع فى غربى أوروبا إلى مجتمع زراعى صرف ، وأصبح الناس جميعاً يعيشون على نتاج الأرض وحده مباشرة أو غير مباشرة : من الإمبراطور الذى كان يعتمد على ما تخرجه أرضه من محاصيل وما يؤديه إليه أتباعه ومزارعوه من واجبات إقطاعية عينية ، إلى «القن» المتواضع الذى كان يعيش على نصيبه من غلة الأرض التى يزرعها . وأصبح العقار الثابت من أرض أو بيت أساس الثروة . وإزاء ذلك عجزت الدولة عن الحصول على المال اللازم لكراء الجند وتجييش الجيوش ، وأصبح عماد الأباطرة من الناحية العسكرية على الخدمات الحربية التى كانت عقود الإقطاع تلزم الأتباع بأدائها لفترات قصيرة ، واعتمد الإمبراطور فى إنجاز أعمال الدولة على خدمات كبار أتباعه . ولما كانت هذه الخدمات كلها قليلة متقطعة ، فإن الدولة حرمت نتيجة لذلك كله الأداتين الأساسيتين اللتين لا تقوم دولة بدونهما : الموظفين الدائمين والجيش القائم ، والنتيجة الطبيعية لهذا كله هو ضعف الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بمكانها وهيبتها .

وإذا كانت الدولة قد ظلت قائمة من الناحية النظرية ، فقد اختفت فى الواقع ، ولم يكن النظام الإقطاعى فى واقع الأمر إلا تفتيتاً لسلطان الدولة وتوزيعاً له بين المقطعين ؛ لأن كل مقطع كان يحرص على أن يحل محل الدولة

فى أراضيه ، مقابل ما يؤديه للإمبراطور من خدمات والتزامات إقطاعية ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن غلبة نظام الإقطاع على غربى أوروبا خلال القرن التاسع كان النتيجة السياسية لتحول المجتمع الأوروبى إلى مجتمع زراعى خلال هذا القرن .

وقد عرف غربى أوروبا نظام الضياع المستقلة «الدومين» منذ زمن بعيد ، فقد كان فى غالة على أيام أباطرة الرومان وملوك الميروفنجيين ضياع واسعة أو فيلات[1] يملكها أشخاص يستخدمون أعداداً كبيرة من الزراع فى زراعتها ، وقد كان لهذه الفيلات دور هام فى اقتصاديات تلك العصور ؛ إذ كان أصحابها يبيعون الفائض من محاصيلهم أو يستبدلون به ما كانوا بحاجة إليه من سلع ومصنوعات ، فكانت الضياع مراكز للتبادل التجارى النشيط ، فلما تحول المجتمع كله إلى مجتمع زراعى واختفت التجارة والتجار لم يجد أصحاب الضياع من يحمل محاصيل أراضيهم ويأتيهم عوضاً عنها بما يحتاجون إليه ، واضطروا لهذا إلى الخضوع للنظام السائد ، وأخذوا يستهلكون غلاتهم محلياً ، وأصبح أساس حياتهم الاقتصادية ما يعرف بالاقتصاد الضيعى المقفل économie domaniale fermée ، واهتم كل صاحب ضيعة بأن يضع فى أرضه كل ما كان هو وأهل ضيعته يحتاجون إليه من

---

(١) الفيلا Villa تطلق عند الرومان على الضيعة التى يملكها مالك كبير والبيت الذى يقيمه لنفسه فيها ، وقد تطور استعمال اللفظ فأصبح على القصر الريفى ثم على القصر الخاص الصغير . وقد عرفت العصور الوسطى نوعاً جديداً من الضِّياع تسمى واحدتها بالفيلا نوفا Villa nova أى الضياع الجديدة ، نشأت عن سماح كبار الملاك لجماعات من المزارعين باستصلاح الأرض البور على أساس حر غير إقطاعى ، وقد كان نشوء الفيلا نوفا إلى قيام المدن من مظاهر الانتعاش الاقتصادى فى غربى أوروبا وإرهاصات زوال الإقطاع ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى . انظر :

H. Pirenne, op. cit. pp. 62. Sqq

R. Schroeder: Die Niederlandischen Kolonien im Nord deutschand zur zeit des Mittelalters. Berlin. 1880.

وأنا مدين فيما أخذته من هذا المرجع الأخير لما تفضل الأستاذ آرنالد شتايجر بإرساله إلى من نُقُول منه .

أدوات وأن ينسج ما يلزمه ويلزمهم من أقمشة دون زيادة ، لأن الزيادة لم تكن تجد من يشتريها أو يبادل بها شيئاً .

ولم يعرف غربى أوروبا خلال القرن التاسع إلا أفراداً قلائل من اليهود ، كانوا يتسربون إلى غالة عن طريق الأندلس حاملين ما خف وغلا من الحاجات وطرف المصنوعات الشرقية ، كنسيج الحرير الرقيق الذى كان يصنع فى الأندلس ومصر والشام وبلاد الدولة البيزنطية ، وقد اقتصرت هذه التجارة على اليهود حتى إن لفظ اليهودى Judalus والتاجر Mercator كانا مترادفين إذ ذاك ، وقد عرفوا فى غربى أوروبا بنفس الاسم الذى عرفهم به المسلمون فى ذلك العصر وهو «الرادانيون» Radanites — نسبة إلى نهر الرون وهو رودانوس باللاتينية ؛ لأن مراكزهم كانت فى بلاد حوض هذا النهر . وقد كانوا يقدمون للكنائس ما كانت بحاجة إليه من بخور وللناس الفلفل ، وكان من أغلى حاجات العصر ، حتى إن الناس كانوا يستعملونه أساساً للتبادل كالنقود[1] .

ونتيجة هذا كله أن أصبح غربى أوروبا كله مجتمعاً زراعياً خالصاً يتسم بكل الخصائص التى تلازم المجتمعات الزراعية حيثما كانت : فعلاقة الإنسان بالأرض هى التى تحدد وضعه فى المجتمع ، فمن يملك الأرض يتمتع فى نفس الوقت بالحرية والقوة والسيادة ، ومن لم يملك أرضاً لم يعد له نصيب من حرية أو جاه أو سيادة . ولفظ فيلان Vilain — الذى نستعمله نحن اليوم بمعنى : شرير ، أو قبيح — كان يطلق إذ ذاك على العامل الزراعى فى الضيعة أو الفيلا ، وهذا أمر له دلالته . وكانت أوضاع الناس فى هذا المجتمع هى التى تقرر وضعهم القانونى أيضاً ، فكان العاطل من الأرض أيا كان شخصه فى مراتب المستضعفين المستغلين . وكان الناس على هذا طبقات بعضهم فوق بعض بحسب ما يملكون — أو لا يملكون — من أرض .

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 14-15.

ط ــ أثر ذلك التحول فى مركز الكنيسة :

وفى ذلك المجتمع الزراعى الهرمى كان المكان الأول فيه للكنسية ورجالها ، فقد ملكت الكنائس مساحات شاسعة من الأرض يديرها الأساقفة والقسوس ، وكانوا يحرصون على حسن إدارتها واستغلالها والاستزادة من الأملاك ما تيسر ، وكان رجال الدين يمتازون إلى جانب ذلك بالقراءة والكتابة . ثم إن أصغر بيعة لم تكن تخلو من شىء من آنية الذهب أو الفضة أو طرف من المخمل أو الحرير مما يلزم للطقوس ، وكلها كانت نفائس ذات قيمة يستطيع القس الانتفاع بأثمانها فى أوقات المجاعات والنوازل . وكانت صناديق الكنائس لا تخلو أبداً من العملة التى كانت الناس يدخرونها وفاء للنذور أو زكاة عن أنفسهم . وكانت الكنيسة تستعين بهذا المال أيضاً فى تمكين سلطانها وتأييد مركزها أضف إلى ذلك أن رجل الدين كان يقوم بكل يحتاج إليه جيرانه من كتابة وقراءة وتحرير عقود وما أشبه . ومن ثم غلبت روح الدين على كل شىء فى هذا المجتمع الزراعى وجمع رجاله إلى جانب قوة المال قوة المعرفة والعلم ، فضلا عن جاه الدين[1] .

وكانت نظرة الكنيسة إلى الحياة تتفق تمام الاتفاق مع روح العصر وأوضاعه ، فقد كانت الكنيسة تقول إن الله قد وهب الناس الأرض ليعيشوا عليها ريثما ينتقلون إلى الدار الباقية ، والإنسان على الأرض لا يعمل ليجمع المال بل ليقيم أود نفسه فى الوضع الذى برأه الله عليه حتى تدركه منيته ، وكان زهد الرهبان والديارين ــ نتيجة لذلك ــ هو المثل الأعلى الذى كان على كل مسيحى صالح أن يتحراه ، والفقر قضاء من الله ، وعلى من يملك زيادة من الخير أن يتصدق بها على الفقير ، أما بيع هذه الزيادة فلا يتفق مع الفضائل المسيحية كما كانت تبشر بها الكنيسة فى تلك العصور[2] .

---

(١) Cf. H. St. L.B. Moss: The Birth of the Middle Ages 396-814. (Oxford, 1935), p. 37. H. Pirenne: Civilisation. pp. 16-17.

(٢) H. Pirenne, op. cit. p. 17.

ومن هنا كانت الكنيسة وأخلاق العصر تنظر إلى التجارة على أنها عمل لا يليق بالمسيحى المخلص ، وكان التاجر متهماً فى دينه ، وكان رجال الكنيسة يقولون : إن التاجر يكاد ــ أو لن ــ يدرك رضا الله Homo Mercator Vix aut non qoam potest Deo placere mutuum date nihil وكانوا يحضون الناس على البذل والإنفاق ، inde sperantes هذا فضلا عن تحريم الربا ومعاقبة من كان يتعاطاه [1].

كانت آراء الكنيسة إذن فى ذلك العصر صورة من روحه تمثله لنا أصدق تمثيل . وذيوع هذه الآراء وأخذ الناس بها فى ذاته هو الصورة العقلية لركود المجتمع الأوروبى فى ذلك العصر نتيجة لاختفاء التجارة ووقوع غربى أوروبا فى ذلك الانحصار البحرى الكامل الذى وصفناه .

ي ــ النتائج الثقافية :

وتتصل هذه النتائج الاقتصادية والاجتماعية التى ذكرناها بنتائج ثقافية يراها بيرين ناتجة عن الظروف القاسية التى مر بها العالم اللاتينى فيما بين القرنين السابع والعاشر . فقد امحت آثار اللغة اللاتينية والثقافة الرومانية فى المغرب كله ، وحلت محلها لغة العرب وثقافة الإسلام ، ودخل هذا الجزء الكبير من أراضى الغرب فى النطاق الثقافى المشرق ، وامتدت معه حدود الثقافة الآسيوية إلى المحيط الأطلسى . وكانت هذه الحقيقة تثير نفس أ . ف . جوتييه الجغرافى المؤرخ الفرنسى ، ونحن لا نكاد نقرأ له فصلا إلا وجدناه يبدى ويعيد فى هذا الموضوع بين الأسف والتعجب[2] .

---

(١) قارن ذلك بما يقوله ابن خلدون فى مقدمته فى فصول مثل «فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك» و«فصل فى أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة» .

(٢) انظر كتابه :

E.F. Gautier: Le passé de l'Afriqoe du Nord (Les siécles obscures), 2e. éd. Paris. 1937.

أما فى شبه الجزيرة الإيبيرية فقد اختفت اللاتينية أمام العربية من معظم نواحيها ، واختفت حتى من الكنائس ، فلم يعد يعرفها ويقرؤها ويكتبها إلا نفر قليل جداً من كبار رجال الدين ، وانقطعت الأسباب بين غالة وإيطاليا من جهة وإسبانيا من جهة أخرى ، فنسى الناس اللاتينية فى هذا البلد الأخير ، وتكلموا فى أحاديثهم لهجة شديدة البعد عنها هى القشتالية ، وهى أصل الإسبانية ؛ هذا إلى ذيوع اللغة العربية كلغة رسمية علمية فى الأندلس . وقد تكلم الناس هذه اللهجة القشتالية البدائية فيما بقى للنصارى من بلاد شمال إيبريا ، وأخذ مداها يتسع شيئاً فشيئاً ، وامتدت نحو الجنوب تبعاً لتقدم نصارى الشمال وتضاؤل الأندلس الإسلامى ؛ وهى التى أصبحت فيما بعد اللغة الإسبانية .

وأما فى غالة فقد غلبت الأمية على الناس فى ذلك المجتمع الزراعى الذى لا يكاد من يعيش فيه يحتاج إلى قراءة أو كتابة ، بل كانت اللاتينية التى علمها رجال الدين فى مدارسهم لاتينية ركيكة محرفة ، ولكنها كانت لاتينية على أى حال . وقد ظلت هذه اللاتينية تعلم وتفهم حتى نهاية العصر الميرفنجى ، وكان الناس يستطيعون التفاهم بها فى أرجاء العالم الرومانى كله[1] .

وفى خلال القرن الثامن نجد أن هذه اللاتينية المحرفة تختفى فى غمار الفوضى السياسية مع اختفاء المدن والتجارة ونظم الإدارة ، واختفت كذلك مدارسها ومن كان يعنى بها وبتعليمها من المعنيين بالمعرفة من غير رجال الدين . هجنت هذه اللاتينية وانقطعت الصلة بنيها وبين أصلها وحلت محلها لهجات رومانية فى كل ناحية[2] . ولا نعرف كيف حدث ذلك بالتفصيل ،

---

(١) H. Pirenne: Mahomet et Charlemagne. pp. 251-252.

(٢) تعبير بيرين هنا طريف ، ونصه :

Elle S'abatardit et se transforme suivant les régions en dialectes romans. op. cit. p. 252.

ولكننا نجد الناس فى غربى أوروبا حوالى سنة ٨٠٠ لا يتكلمون اللاتينية ، ولا ينطقون بها إلا فى الكنائس وبين المشتغلين بالعلم . أصبحت اللاتينية لغة العلم ، وهذه ظاهرة أخرى يقرر الأستاذ بيرين أنها ظهرت خلال العصر الكارولنجى (١) .

ومن الغريب أن تحول اللغة اللاتينية إلى لغة علم بدأ فى ناحية كان الجرمان قد أزالوا منها كل أثر لاتينى أو رومانى : بدأت فى بريطانيا التى نزلها الأنجلوسكسون .

ذلك أن المسيحية لم تدخل بريطانيا عن طريق غالة ، وكان هو الأمر المنطقى ، وإنما وصلتها عن إيطاليا مباشرة ؛ لأن البابا جريجورى الكبير أرسل إلى بريطانيا نفراً من الرهبان الأوغسطينيين ليبشروا بالمسيحية فى هذه الجزائر سنة ٥٩٦ ، واجتهد الرهبان فى تعليم الناس اللاتينية والمسيحية فى آن واحد ، فارتبطتا فى أذهانهم وأصبحت اللاتينية والمسيحية فى اعتبارهم شيئاً واحداً ، وعن رجال الدين من الأنجلوسكسون انتشرت فى أوروبا فكرة ارتباط المسيحية واللاتينية ، أى أن شمالى أوروبا أصبح مصدراً من مصادر الفكر كما كان مركزاً لسياسة أوروبا فى ذلك الحين ، وذلك — فى رأى بيرين — نتيجة أخرى من نتائج سيادة المسلمين على البحر الأبيض .

وإليك ما يقوله بيرين بنصه ننقله لأهميته الخاصة فى هذه الدراسة :

«ولا بد أن نرجع الفضل فى النهضة الفكرية التى حدثت فى عصر شارلمان إلى المبشرين الأنجلوسكسونيين . وقد سبقهم إلى ذلك الرهبان الأيرلنديون ، وخاصة كولومبان Colomban أعظمهم جميعاً ، وقد نزل فى غالة حوالى ٥٩٠ وهو منشىء ديرى لوكسوى Luxeuil وبوبيو Bobbio . وقد دعا هؤلاء الرهبان إلى التزهد فى عالم كانت عقيدته الدينية فى انهيار . ولكننا لا نستطيع القول بأنه كان لهم أى لون من التأثير الفكرى » .

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 252.

«أما المبشرون الأنجلوسكسون فأمرهم يختلف عن ذلك كثيراً : كان هدفهم هو نشر المسيحية فى بلاد الجرمان ، ولم تفعل «الكنيسة» فى هذا السبيل شيئاً ، أو فعلت شيئاً لا يستحق الذكر . وقد وافق مسعاهم هذا ما كانت ترمى إليه السياسة الكارولنجية . وهذا يفسر لنا السر فيما كان يتمتع به رجل مثل القديس بونيفاس من مكانة عظيمة فى هذه الدولة ، فهذا الرجل هو منظم الكنيسة الجرمانية ، ومن هنا كان همزة الوصل بين البابا و بيبين القصير » .

« ولقد كان شارلمان مهتماً أشد الاهتمام بالنهضة الأدبية وبإصلاح أمر الكنيسة فى آن واحد . وقد دخل فى خدمته أظهر ممثلى الثقافة الأنجلوسكسونية وهو ألكوين Alcuin فى سنة ٧٨٢ إذ جعله مشرفاً على مدرسة القصر . ومن ذلك التاريخ أصبح له تأثير حاسم فى الحركة الأدبية فى ذلك العصر » .

«وهكذا نجد أنفسنا أمام أعجب صورة لانقلاب الأوضاع وهى أنصع دليل على ما أحدثه الإسلام من شدخ فى الاتجاه العام لتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، فقد أخذ الشمال مكان الجنوب كمركز أدبى وسياسى معاً»[1] .

ثم يقول إن أولئك المبشرين الأنجلوسكسون حملوا إلى بلاد الشمال اللغة اللاتينية الأصيلة ، لا تلك اللاتينية الركيكة المليئة بالأخطاء التى استعملها الناس فى غالة وإيطاليا فى ذلك الحين لتيسير شئونهم المعاشية والإدارية ، ويصف كيف كانوا يحرصون على دراسة اللاتينية الصحيحة فى الأديرة دراسة ثابتة عميقة قبل صدورهم إلى نواحى الشمال التى كانوا يبشرون فيها بالمسيحية ، ويقول بعد ذلك :

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 253-254.

«وإذن فقد حمل أولئك المبشرون إلى من أدخلوهم فى المسيحية التقليد اللاتينى الأصيل القديم واللغة الصحيحة التى لم تتحرف وتفسد بسبب استعمال الجمهور إياها فى شئونه الدارجة ومصالحه ؛ لأن الجمهور هناك كان يتكلم الأنجلوسكسونية . وإذن فقد تلقت الأديرة الإنجليزية تراث الثقافة القديم تلقياً مباشراً ، بالضبط كما سيحدث فى القرن الخامس عشر ، عندما يحمل علماء بيزنطة المهاجرون إلى إيطاليا اللغة الإغريقية الأصيلة التى كان الناس يتدارسونها فى المدارس ، لا إغريقية العوام فى الطرقات . ومن هنا أصبح الأنجلوسكسونيون مصلحى اللغة والكنيسة فى آن واحد»[1] .

ك ــ محمد وشرلمان :

وهذا الذى يقوله بيرين ينطوى على معان بالغة الأهمية تغلب كل ما كان الناس يقولونه عن ثقافة الإمبراطورية الكارولنجية رأساً على عقب ، فقد كان المؤرخون يرون أن نهضة الثقافة فى العصر الكارولنجى أو ما يسمونه بالنهضة الكارولنجية La Renaissance Carolingienne كان ثمرة لجهود أهل العلم من اللاتين ممن خدموا الدولة . وكان علماء الألمان خاصة يرون أن الفضل فيها يرجع إلى أهل العلم من الجرمان من أهل شمالى الدولة الكارولنجية ، فأثبت خطأ ذلك ، وأن العلم واللغة اللاتينية كانا فى حال سيئة فى جنوبى غالة ووسطها وإيطاليا فى ذلك الوقت ، وأن الذى قام بعبء هذه النهضة كانوا من الأنجلوسكسون الذين أخذوا المسيحية واللاتينية من أصولهما عن طريق الدرس الدءوب فى الأديرة .

وإلى جانب ذلك نلاحظ انتقال العلم إلى بلاد الشمال ، نتيجة لما أصاب النواحى الجنوبية من غربى أوروبا من ركود وما تهددها من أخطار . وبينما كان العلم يضمحل بين سكان البلاد الرومانية الأصيلة فى إيطاليا وغالة

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 254.

كانت أقدامه تثبت فى نواحى الشمال حيث حمله إليها رهبان من الأيرلنديين أو الأنجلوسكسون . وعندما يتأمل الإنسان أسماء من اشتهر بالعلم خلال هذا العصر يلاحظ أن غالبيتهم من أصول أيرلندية أو أنجلوسكسونية أو أوروبية شمالى السين مثل ألكوين ونازون وإيثلولف و Sedulius Scotus و Walahfrid, و Raban Maur, و Eginard, و Angilbert, و Gotteschalc, وغيرهم كثيرون ممن نقرأ كتاباتهم إلى جانب ما خلفه ذوو الأصول الرومانية من كتاب ذلك العصر من أمثال Paulin d'Aquilée, و Théodulphe d'Orléans, Diacre ومن إليهم .

وخلاصة كلام بيرين عن الناحية الثقافية من نتائج سيطرة المسلمين على حوض البحر الأبيض ، أن مراكز العلم والثقافة انتقلت شيئاً فشيئاً إلى الشمال حتى صار لها فيه من المراكز ما فاق مراكزها فى مواطنها الأولى فى إيطاليا وغالة ، أى أن الثقافة اللاتينية التى كانت قبل ذلك رومانية أصبحت جرمانية رومانية ، واقتصر أمرها فى كلتا الناحيتين على الكنيسة .

أصبح شمالى أوروبا إذن مركزاً من مراكز الحضارة اللاتينية الرومانية بسبب ما أصاب جنوب جزئها الغربى من ركود واضمحلال نتيجة لسيطرة المسلمين على البحر الأبيض ، وهذه الثقافة الرومانية التى انتقلت إلى الشمال وأخذت طابعاً جرمانياً فى نواحى الرين الأدنى هى التى اعتمد عليها شارلمان فى إقامة دولته : من أهلها كان رجاله وموظفوه ، بل كان من أظهر ما ميز شارلمان وجعل له مكاناً فى التاريخ هو تفكيره الجرمانى الرومانى واتجاهه إلى إحياء الدولة الرومانية وميله إلى الكنيسة وإخلاصه للمسيحية ، كل ذلك كان نتيجة لانتقال هذه الثقافة الرومانية إلى الجرمان وتأصلها بينهم ، ولولا أن الفرنجة الساليين اكتسبوا هذا الطابع الثقافى الرومانى ما بلغت دولتهم هذا المبلغ ، ولما كان شارلمان ما كان ، ومن ثم ينتهى بيرين إلى قالته المشهورة : « إن شارلمان لا يفهم بدون محمد » وهى قالة فيها كثير من العمق ، ولكنها تبعث كثيراً من الاعتراضات والاستدراكات ، وكان من الطبيعى لهذا أن

تثير بين علماء العصور الوسطى ما لم تثره نظرية أخرى قال بهم عالم آخر[1].

وقد جاءت الاعتراضات على آراء بيرين من ناحية مؤرخى الألمان ؛ لأن بيرين عندما تتبع نتائج سيطرة المسلمين على البحر الأبيض جعل من بينها تحول مجتمع غربى أوروبا إلى مجتمع زراعى ثم انتقال الحضارة اللاتينية إلى شمال غربى أوروبا ، وقال إن هذا الانتقال هو الذى جعل لعصر شارلمان حضارة وقوة ، وجعل لدولته هذا المكان فى تاريخ أوروبا ، أى أن السر فى عظمة الدولة الشارلمانية إنما هو انتقال الحضارة اللاتينية إلى الشمال حيث كان مركز الدولة ، ولولا هذا الانتقال لما كان للعصر الشارلمانى هذا المقام . أى أن العناصر الجرمانية فى الدولة الشارلمانية لم يكن لها حضارة من عندها ولم تساهم فى إقامة الدولة إلا بالجانب العسكرى .

وعلماء الجرمان لا يقولون بذلك ، بل إنهم يقولون : إن أسس الدولة الشارلمانية كلها ــ أو معظمها على الأقل ــ كانت جرمانية ، وإن أصول نظمها إنما تلتمس فى نظم الجرمان الأولى . ويخالفهم فى ذلك المؤرخون الذين ينتسبون إلى أصل لاتينى ، كالفرنسيين مثلا . وهذا الخلاف على أسس الدولة الشارلمانية إن هو إلا مظهر من مظاهر النزاع حول أصول الحضارة الوسيطة بين المدرسة الجرمانية والمدرسة الرومانية .

ل ــ اعتراضات على نظرية بيرين :

وكان من الطبيعى أن يعترض مؤرخو الألمان على آراء بيرين اعتراضات شتى . وهذه الاعتراضات أخذت صورتين : الأولى الإقلال من شأن

---

(١) انظر : فازيلييف : الإسلام وبيزنطة . ذيل على الترجمة العربية لتاريخ الدولة البيزنطية لفورمان بيتز ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

Charlemagne Sans Mahomet est Inconcevable

سيطرة المسلمين على البحر الأبيض ، ودحض ما سماه بيرين انقفال البحر الأبيض ، والثانية بيان الأصول الجرمانية فى الحضارة الشارلمانية وإعطاؤها جانباً أكبر من الأهمية . وقد كتب الرد على بيرين كثيرون منهم ألفونس دوبش Alfons Dopsch وورودلف إيجر Rudolf Egger ، وأوزوالد منجين Oswald Menghin ، ورودلف موش Rudolf Musch ، وكارل باتش Karl Patsch وهانز أوبر برجر Hans Uberberger ، وإيرما باتسلت Erma Patzelt وغيرهم كثيرون وقد أحسنوا الدفاع عن وجهة نظرهم من ناحية إثبات نصيب الجرمان فى الحضارة الكارولنجية . وبقى أن نبحث نحن ــ أى مؤرخو الإسلام ــ جانبنا من هذه القضية الهامة . وقد لمست الآنسة إيرما باتسلت النقص فى الجانب الإسلامى من هذه الدراسة ، وأهابت بدارسى تاريخ الإسلام وحضارته أن يدرسوا الموضوع من جانبهم ، ويبينوا ما كان للإسلام من نصيب فى تاريخ البحر الأبيض ، وما كان لقيام دولهم على شواطئه من أثر على تطور الحضارة الأوروبية[1] .

---

(١) Erma Patzelt: Die Frankische Kultur und der Islam, (1932), S. 2.

obeikandl.com